مسؤولية الصحافة الإسلامية في ترشيد مسيرة الصحوة

(*) قدمت هذه الورقة في ندوة «وسائل الإتصال الحديثة وأثرها على المجتمعات الإسلامية» التي عقدتها المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (ايسيسكو) ورابطة الجامعات الإسلامية بالقاهرة في الفترة من ٥ ـ ٧ جمادى الأولى ١٤١٥ هـ الموافق ١٠ ـ ١٢ اكتوبر ١٩٩٤ م.

لم يعد هناك مجال للشك في وجود صحوة إسلامية متنامية في مجتمعاتنا المعاصرة. ونقصد بالصحوة تزايد الالتزام الديني بين أفراد المجتمعات المسلمة، وبخاصة في صفوف الشباب. ومن جهة أخرى نقصد بالصحوة تنامي الشعور الجماعي بين المسلمين في مختلف أنحاء العالم بضرورة تأكيد هويتهم الإسلامية وترسيخ معالمها في واقعهم.

ويمكننا أن نلاحظ تزايد الاتجاه نحو الالتزام الفردي بتوجيهات الدين، وبخاصة بين الشباب، في مظهرين أساسيين، أولهما تزايد الطلب على المعرفة الإسلامية مما نتج عنه تنشيط القنوات التي تُستَقَى منها هذه المعرفة، كمنابر المساجد وحلقات العلماء ومحاضرات الدعاة وندواتهم الدينية وأشرطتهم الإسلامية. كما تنامى اهتمام وسائل النشر والإعلام من كتب وصحف ومجلات ووسائل إذاعية وتلفزيونية بالمادة الإسلامية.

أما المظهر الآخر لتزايد الالتزام الفردي فيتمثل في اتجاه الأفراد إلى مزيد من التطبيق العملي لتوجيهات الإسلام في حياتهم الخاصة والعامة كالاقبال على المساجد والإكثار من الطاعات والتحرز من المحرمات وزيادة الوعي بقضايا الدين والاهتمام بشؤون المسلمين في كل مكان.

ويمكننا أن نلاحظ الاتجاه المتنامي نحو الالتزام بالاسلام على

المستوى الجماعي بين المسلمين في عدة مظاهر من أهمها: تدفق الشعور الجماعي بضرورة الاستمساك بالهوية الاسلامية، وارتفاع الدعوات إلى تطبيق الشريعة الإسلامية، والمطالبة بإعادة صياغة اتجاهات الأمة نحو مزيد من التميز الحضاري و «أسلمة» المعارف وإقامة المؤسسات الإسلامية، وبلورة مواقف واضحة من القضايا المثارة على الساحة الدولية نابعة من المنظور الإسلامي.

إنَّ هذه الظاهرة التي نطلق عليها ظاهرة الصحوة الإسلامية هي ظاهرة طبيعية وصحية في حياة الأمة. فهي تحقيق لوعد الله تعالىٰ بأن تبقى طائفة من الأمة منصورة لتكون شاهدة على الناس. وهي تعبير عن رغبة المسلمين في أن يعيشوا في ظل تعاليم دينهم وأن يُحكموا بالاسلام بعد أن أفلست المبادئ والنظم والشعارات الوضعية التي غررت بكثير من المسلمين حيناً من الدهر. وهي ارهاص ـ بإذن الله ـ لانتصار الإسلام وعودته إلى قيادة حياة المسلمين أولاً ثم قيادة ركب البشرية التائهة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ **وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً** ﴾.

وليس من المبالغة في شيء أن نقول إن الصحوة الإسلامية هي المشعل الوحيد الذي يضيء واقع الأمة المعاصر بعد أن تكالبت عليها الأمم وتعاقبت على أرجائها الظلمات. ومن حق هذه الصحوة المباركة ـ بالرغم من كل ما فيها ـ أن نعترف بأنها الحسنة الجميلة في واقعنا التعيس. ومن الطبيعي أن يرافق صحوة الأمة كثير من الآلام الموجعة الناتجة من جهل ابنائها من جهة ومن كيد أعدائها من جهة أخرى.

منازع شتى

والذين يتناولون اليوم ظاهرة الصحوة الإسلامية بالدرس والتحليل

يتجهون إلى منازع شتى. فمنهم المحب العاشق لها فلا يرى إلا حسناتها وايجابياتها ولا يقبل نقداً لها أو رأياً مخالفاً لأطروحاتها. ومنهم الذي يهضم الصحوة حقها ويقلل من شأنها ولا يعرف لها قيمتها. ومنهم من يناصبها العداء ويرى فيها «شراً مستطيراً»، فيشوّه صورتها، ويؤلب الأعداء عليها.

والحق ـ في نظري ـ أنّ هذه الاتجاهات الثلاثة تقع بين المغالاة والمعاداة. فالمحبون العاشقون مغالون في نظرتهم وأخشى أن يقعوا في مصيدة «تقديس» الصحوة واعتبارها «كمالاً» لا يعتريه النقص والقصور. والهاضمون لحق الصحوة والمقللون من شأنها تتسم نظرتهم بالقصور، وربما كان ذلك بسب نقص المعلومات لديهم أو بسبب غشاوة يضعونها على أعينهم فتحجب عنهم الحقائق الواضحة.

أما المعادون للصحوة، فمنهم أعداء للإسلام أصلاً فلا يتوقع منهم إلا العداء ولا يستغرب عليهم أن يكرهوا الصحوة وأن يسعوا بكل الأساليب إلى محاولة القضاء عليها. ومن هؤلاء المعادين بعض من بني جلدتنا في مجتمعاتنا الإسلامية ممن اعتنقوا أفكاراً مخالفة أو صبغتهم ثقافة «التغريب» و«العلمنة» بصبغتها فهم يخشون من الإسلام ويعتقدون أن في صحوة الثقافة الإسلامية عزلاً لهم وتهميشاً لدورهم الفكري. وأحسب أن بعض هؤلاء لا يكنّون للإسلام عداء متأصلاً ولكنهم لم يعرفوا الثقافة الإسلامية على حقيقتها فهم يعانون من فجوة اتصال مع ثقافة الإسلام. وهذا يفرض على دعاة الإسلام ومحبيه فتح قنوات حوار معهم ليعرفوا حقيقة الإسلام بموضوعية وانصاف.

وإذا كنا لا نستحسن الإتجاه العاشق المغالي للصحوة، ولا نقبل الإتجاه المقلل من أهميتها، ونرفض رفضاً قاطعاً الإتجاه المعادي الذي لا يرى في الصحوة إلا أخطاءها وسلبياتها فيضخمها ويبالغ فيها دون وجه حق، إذا كنا نفعل ذلك فما الموقف الذي نراه ونميل إليه؟

إنَّ الموقف الصحيح في نظرنا هو اعتبار الصحوة الإسلامية ظاهرة انسانية استناداً إلى أن هناك فرقاً بين الدين والتدين، فالدين هو توجيهات الإسلام وتعاليمه الربانية المنزلة من الله تعالى، وهو بهذا التصور كامل ومنزه عن القصور. أما التدين فهو فهم الإنسان وتطبيقه لتوجيهات الدين، فهو ـ أي التدين ـ بهذا التصور سلوك بشري يعتريه النقص والقصور وهو ليس مقدساً وينبغي أن لا يعامل بهذا الاعتبار.

إن التدين ظاهرة بشرية تقترب من الكمال كلما اقتربت من التوجيهات والمبادىء المثالية للدين. ويتباطأ خطوها نحو ذلك الكمال كلما ابتعدت عن توجيهات الإسلام ومثالياته. الصحوة ـ إذاً ـ لها إيجابياتها ولها سلبياتها ولا ينفي كثرة إيجابياتها وجود الخلل والنقص والقصور فيها لذلك ينبغي علينا أن ننظر إلى الصحوة نظرة موضوعية متوازنة فلا تعمينا إيجابياتها عن النظر في سلبياتها، كما لا تدفعنا سلبياتها إلى إنكار إيجابياتها. إنّ هذه النظرة المتوازنة تقوم على أساس من العدل والإنصاف.

ترشيد الصحوة

وفي إطار هذا المنهج تأتي الدعوة المخلصة نحو ترشيد الصحوة الإسلامية. ونحسب أن كلمة «ترشيد» هي الأفضل دلالة في هذا المقام، فالترشيد يعني السعي نحو الرشاد والرشد ومن معانيه التطلع نحو النضج والاكتمال، فهي ـ إذاً ـ كلمة معبرة بحق عما نهدف إليه بترشيد الصحوة الإسلامية. والترشيد أعم وأشمل من النقد، فالنقد قد ينصرف إلى البحث عن السلبيات لعلاجها ـ وهو أمر مشروع ومطلوب ـ بلا ريب ـ أما الترشيد فهو نقد وبناء فهو ـ بهذا المفهوم ـ لا يقتصر على علاج السلبيات فحسب، بل يشمل أيضاً ترسيخ الأصول وتعميق الإيجابيات ومواصلة البناء.

ما الذي ينبغي ترشيده في الصحوة الإسلامية؟ إذا كان ترسيخ الإيجابيات ومواصلة البناء عليها حتى لا تشوه صورتها السلبيات أمراً مطلوباً فإن المهمة التي تسبق ذلك وترافقه أيضاً تتمثل في وجوب إزالة الشوائب وتنقية التربة وذلك بإعادة النظر في مفاهيم الصحوة وأفكارها ومناهجها وأساليبها على نحو مستمر ومتواصل يتناسب مع نمو هذه الظاهرة واتساع نطاقها وتعدد الاجتهادات فيها. ونستعرض هنا بعض الأمثلة والنماذج للمجالات التي نرى ضرورة مراجعتها في ضوء منهج إسلامي سديد يشترك في صياغته نخبة من علماء الأمة ومفكريها ودعاتها الذين يتمتعون بالعلم المتين والفهم السديد والوعي المتكامل لتوجيهات الدين ومتغيرات الواقع.

ففي مجال التدين الفردي هنالك مفاهيم عديدة لا بد من ترسيخها أو تصحيحها، فمن ذلك مفاهيم الوسطية والغلو وتصنيف الناس وإطلاق النعوت الخطيرة كالتكفير والتفسيق والتبديع. وهنالك سلوكيات مريضة لا بد من علاجها كالتعالي على الخلق بدعوى الالتزام وتنفير الناس من الدين بمحاولة قسرهم على الأخذ بالأشد. ومن هذه السلوكيات أيضاً الانعزال عن المجتمع بدعوى جاهليته أو وجود مظاهر فساد فيه. ومنها أيضاً الاضطراب في تطبيق مباديء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي ينتج عن اختلاط المفاهيم واضطرابها لدى بعض المتدينين.

أمّا في مجال التدين الجماعي فتعاني بعض الجماعات والحركات والأحزاب التي تنسب نفسها للصحوة الاسلامية من أمراض شتى منها: التعصب للرأي والانحياز السلبي للجماعة أو الحزب، وهذا ناتج عن تضخم الرؤية الأحادية وانحسار قيم التسامح والتعددية. ومن هذه الأمراض أيضاً اشتغال كثير من هذه الجماعات والأحزاب بالخلافات فيما بينهما مما يؤدي إلى تمزق الولاءات وتشتت الأمة. وقد ينتج عن ذلك امتلاء نفوس الأتباع بالأحقاد والضغائن.

وتسلك بعض الجماعات والأحزاب المنتمية للصحوة الإسلامية مسالك تضرّ بالصحوة وأهلها وهي مسالك تحتاج إلى مراجعة وتقويم. ومن ذلك عدم التوازين والتكامل بين فهم توجيهات الدين وفهم متغيرات الواقع. فبعضهم يفهمون التوجيهات بمعزل عن الواقع فينفصلون عن المجتمع ويعيشون في مثالية انعزالية وبعضهم الآخر يفهمون متغيرات الواقع متحررين من التوجيهات الدينية فتزلّ أقدامهم وينساقون وراء طموحاتهم الحزبية أو الشخصية بعيداً عن مقاصد الدين ومتطلبات الشريعة.

ويُضاف إلى هذه المسالك المضرّة بالصحوة الاتجاه المتزايد نحو «تسييس» الصحوة، واستخدامها في الأغراض السياسية. وقد أدّى هذا الاتجاه نحو «التسييس» غير المنضبط بضوابط الشرع لدى بعض الحركات الإسلامية «المسيّسة» إلى مشكلات عديدة منها غلبة الاتجاه نحو مسايرة رغبات الجماهير الثورية والاندفاع العاطفي دون انضباط.

ومنها السعي الحثيث نحو استعداء الآخرين وسوق الأمة إلى صراعات في غير مكانها وأوانها. ويتمثل أخطر هذه المشكلات وأشدها ضرراً على الأمة في زج بعض الحركات والجماعات بأفرادها في أتون التصادم والصراع مع الحكومات والسلطات في عدد من بلدان العالم الإسلامي.

إنّ هذه النماذج والأمثلة تؤكد لنا ضرورة العمل الجاد والفعال في سبيل ترشيد الصحوة الاسلامية. وبدون هذا الترشيد فإنه يُخشى على الصحوة ليس من أعدائها الذين يمكرون بها ليلاً ونهاراً، بل من بعض أبنائها والمنتمين إليها وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

مفهوم الصحافة الإسلامية

وترشيد الصحوة الاسلامية ليست مسؤولية فرد أو زعيم، بل هي

مسؤولية الأمة كلها. وهو ليس واجب جهة بعينها أو مجموعة بذاتها بل هو واجب الجميع. ومع ذلك فإن مسؤولية العلماء والدعاة الذين يحملون أمانة البلاغ والإرشاد أكبر من مسؤولية غيرهم، كما أن واجب جهات معنية كمؤسسات التوجيه الاجتماعي ومنابر التأثير الجماهيري واجب مضاعف، ومن هنا تأتي أهمية تناول دور الصحافة الإسلامية في ترشيد الصحوة. فالصحافة بعامة وسيلة هامة من وسائل التأثير في الرأي العام في المجتمعات الإنسانية المعاصرة. ويتعاظم دور الصحافة الاسلامية في هذا الترشيد بخاصة لصلتها أولاً بالصحوة الإسلامية فهي نبتة مباركة لهذه الصحوة أولاً، ثم إنها من أكثر الوسائل التوجيهية مصداقية لدى الجمهور المنتمي للصحوة. ومن ثمّ فيفترض فيها أن تكون الأكثر تأثيراً في صياغة آراء هذا الجمهور وبلورة أفكاره وبناء تصوراته وتوجيه سلوكياته.

ويتبادر إلى الأذهان ـ دون ريب ـ سؤال مشروع عن مفهومنا للصحافة الإسلامية، وماذا نقصد بهذا المصطلح؟.

إن مصطلح الصحافة الإسلامية مصطلح جد شائك، فهو يطرح جملة من التساؤلات التي تبحث عن إجابات:

أولاً: ماذا نقصد بالصحافة الاسلامية بالضبط؟ هل هي صحافة دينية متخصصة، أم هي صحافة عامة مستلهمة لروح الدين ومصطبغة بتوجيهاته؟ هل هي صحافة حزب أو جماعة أو تيار، أم هي صحافة قيم ومباديء وروح غالبة حتى ولو لم يصدرها حزب يرفع شعار الإسلام أو تيار يتبنى توجهات إسلامية؟ هل هي صحافة يصدرها مسلمون وتتوجه إلى مسلمين، أم هي صحافة يصدرها مسلمون وتتوجه لغير المسلمين بهدف دعوتهم إلى الإسلام؟

ثانياً: ما نوع الجمهور الذي تتوجه إليه الصحافة الإسلامية، هل هو جمهور خاص أم عام؟ هل تتجه الصحافة الإسلامية إلى الملتزمين بالدين،

أم إلى النخبة المثقفة الواسعة أم إلى عامة الناس أم تتوجه إلى هؤلاء جميعاً؟

ثالثاً: ما المنهج الذي يميز الصحافة الاسلامية في معالجتها وطرحها عن «الصحافات» الأخرى؟ وبنحو أكثر دقة: ما الصبغة التي يمتاز بها هذا اللون من الصحافة هل هي الصبغة «الأيديولوجية» الملتزمة، أم هي الصبغة الموضوعية المحايدة؟ هل هي صحافة قضية ورسالة أم صحافة وصف وإخبار، أم هي مزيج من هذا وذاك؟ وفي أسلوب الطرح: هل هو أسلوب يميل إلى الرصانة والوقار أم يجنح نحو التبسيط والإثارة؟ وفي «تقنيات» الكتابة الصحفية وفنون العرض والإخراج : إلى أي مدى يمكنها أن تستخدم هذه «التقنيات» والفنون وما الضوابط الشرعية التي لا بد أن تلتزم بها؟

رابعاً: ما مواصفات العناصر البشرية التي تصلح لقيادة وإدارة وتحرير وإنتاج هذه الصحافة؟ وما طبيعة ومكونات تأهيل هذه العناصر «أو الكوادر» وما المحاضن التي يمكن أن تقوم بهذا التأهيل؟

خامساً: ما هي اقتصاديات هذا النوع من الصحافة، وهل تختلف في طبيعتها ومتطلباتها وآلياتها عن اقتصاديات «الصحافات» الأخرى؟ وهل هناك صيغة مميزة للصحافة الإسلامية تحكم العلاقات التي تقوم بين عناصر: التمويل والإعلان التجاري والتوزيع والإمكانات التقنية الحديثة؟

سادساً: ما المناخ الملائم لنشوء صحافة إسلامية حقيقية سواء على الصعيد السياسي أو الصعيد الاقتصادي، أو الصعيد الاجتماعي؟ وما الارتباط بين كل من حدود الحرية السياسية وحرية التعبير، ومستوى الوعي الاجتماعي، ومشكلات الرقابة والقوانين وبين قدرة الصحافة الاسلامية على القيام بدورها وأدائها لرسالتها؟

هذه بعض التساؤلات التي تشخص ـ في تصوري ـ أعراض الأزمة

التي تعيشها الصحافة الاسلامية المعاصرة. وهي أزمة حقيقية لا مصطنعة وقد لا يعي عمقها ومشكلاتها إلا أولئك الذين عايشوا تجربة هذا النوع من الصحافة عن كثب، أو أولئك الذين حاولوا خوض غمار البحث والدرس التنظيري للصحافة الإسلامية في الحقل الأكاديمي.

ولبحث العلاقة المفترضة بين الصحافة الإسلامية والصحوة الإسلامية نطرح أولاً سؤالاً ذا مغزى مهم إلا وهو: هل الصحافة الإسلامية (ونحن نتحدث هنا عن الصحافة الإسلامية بوضعها الراهن بصرف النظر عن مدى توافقها أو عدم توافقها مع المفهوم الذي ننشده) هل هذه الصحافة هي انعكاس للصحوة الاسلامية وتعبير عنها، أم هي منشئ لتلك الصحوة وموجه لها، أو عامل فاعل من عوامل التأثير فيها على الأقل؟

إن الإجابة عن هذا السؤال تتطلب العودة إلى تاريخ نشأة الصحافة الإسلامية وتطورها في عصرنا الحديث لمعرفة ظروف تلك النشأة ومراحل هذا التطور. وفي غياب الرؤية التاريخية الشاملة والتي تقوم على البحث المستقصي والدراسة التتبعية يصعب علينا إصدار حكم تعميمي قاطع. ولذلك فإنني سأكتفي بتسجيل رأي أولي يعتمد على الإنطباع الذاتي والاستعراض التاريخي العجل. ففي رأيي أن الصحافة الإسلامية ـ بالمفهوم السائد الآن وهي صحافة الاتجاه الاسلامي المنتمية إلى أحزاب أو حركات أو جماعات ـ كانت انعكاساً لحركة الصحوة الاسلامية في نشأتها وتطورها. لقد بدأت بواكير هذا اللون من الصحافة على يد جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده «العروة الوثقي ـ ١٨٨٤ م» ورشيد رضا «المنار ـ ١٨٩٨ م» وعلي يوسف «المؤيد ـ ١٨٨٩ م» ومحمد فريد وجدي «الحياة ـ ١٨٩٩ م» ومحب الدين الخطيب «الفتح» وغيرهم لتعبر عن أفكار اليقظة الإسلامية.

ثم تصاعدت موجة الصحافة الإسلامية ببزوغ نجم الحركات الإسلامية ـ والسياسية منها بخاصة ـ كحركة الأخوان المسلمين في مصر حيث أصدرت الحركة عدة صحف ومجلات، وشهدت فترة ازدهار الحركة نمواً كبيراً في عدد الصحف والمجلات الاسلامية المنتمية لهذه الحركة مثل جريدة «الإخوان المسلمون» و«النذير» ومجلة الإخوان المسلمون و«الكشكول الجديد» و«الشهاب» و«المباحث القضائية» و«الدعوة» وشارك كثير من رموز الجيل الأول من الإخوان في الكتابة الصحفية، وفي العمل المهني الصحفي من أمثال الشيخ حسن البنا، وطنطاوي جوهري وسيد قطب وصالح عشماوي والبهي الخولي وسعيد رمضان وعمر التلمساني وغيرهم. كما شارك من خارج مصر رجال من أمثال مصطفى السباعي من اخوان سوريا.

حتى في المغرب العربي كانت صحافة التيار الاسلامي استجابة لحركة الصحوة الاسلامية وإن على نحو يختلف في أهدافه التكتيكية. فقد كان الشيخ عبد الحميد بن باديس في الجزائر مع البشير الابراهيمي والفضيل الورتلاني وغيرهم يسخّرون أقلامهم في صحفهم الاسلامية للتعبير عن روح المقاومة للاستعمار الأجنبي من جهة، والاسهام في تثبيت القيم والمباديء الاسلامية في نفوس المسلمين من جهة أخرى.

وفي الجزيرة العربية بدأت الصحافة الاسلامية في الحجاز في أوائل هذا القرن بصحف ومجلات مثل: «الرائد» و«الإصلاح» وغيرها. وكانت صحافة أفراد ثم تحولت إلى التبعية لمؤسسات صحفية بإنشاء مؤسسة الدعوة الاسلامية الصحفية التي أسسها مفتي الديار السعودية الشيخ محمد ابن إبراهيم ـ رحمه الله ـ التي أصدرت صحيفة «الدعوة» التي تحولت بعد ذلك إلى مجلة أسبوعية. وسنجد في عدد من الدول العربية والاسلامية الأخرى كسوريا والأردن والهند وأندونيسيا ظروفاً مشابهة لنشأة الصحافة الاسلامية فيها.

قصور واضح

وإذا انتقلنا إلى الصحافة الاسلامية الراهنة نجد أنها تعددت أنواعها من صحافة رسمية تصدرها جهات حكومية، إلى صحافة حزبية تصدرها أحزاب أو هيئات إسلامية، إلى صحافة مؤسساتية تصدرها مؤسسات وجمعيات متخصصة، إلى صحافة فردية يصدرها أشخاص إلى صحافة تجارية تصدرها شركات ومؤسسات ذات طابع تجاري وهكذا. ولكن عدد الإصدارات الصحفية الاسلامية وتنوعها هذا لا يتساويان مع اتساع نطاق الصحوة الاسلامية المعاصرة ولا يعكسان تماماً طبيعة هذه الظاهرة ولا يعبران بشمولية عن حقيقتها. ولهذا القصور أسباب خارجية (أي من خارج حركة الصحوة) وأسباب داخلية (أي من داخل حركة الصحوة)، ولا شك أن عدم توافر المناخ السياسي والثقافي الحرّفي كثير من المجتمعات العربية والاسلامية اليوم، وتكالب ظروف التضييق والقوانين المجحفة والملاحقة والمصادرة والتعطيل التي تحيط بهذا النوع من الصحافة، لا شك أن ذلك كله قد أثر على نحو كبير في تحجيم الصحافة الاسلامية كماً ونوعاً وأسهم هذا العامل الخارجي في إغلاق عدد من الصحف والمجلات ذات الطابع الاسلامي، وتعطيل مسيرتها وصرف أنظار الكثيرين عن مواصلة الاجتهاد في هذا الميدان.

وبالرغم من أهمية العامل أو السبب الخارجي في تفسير القصور الكمي والنوعي للصحافة الاسلامية المعاصرة، إلا أننا نعتقد أن جملة من الأسباب الذاتية كان لها أثر أبعد في ذلك القصور. ومن هذه الأسباب أو العوامل:

١ ـ ضمور الإحساس الإسلامي بأهمية العمل الإعلامي الجماهيري ـ والعمل الصحفي الاسلامي بطبيعة الحال جزء منه ـ لدى الكثيرين من العاملين للإسلام سواء أكانوا أفراداً كالعلماء والمشايخ أم جماعات وتيارات. وقد انصرف العمل الاسلامي إلى ميادين أخرى رأى فيها

الدعاة وطلبة العلم والجماعات مردوداً أفضل كالعمل التعليمي والتثقيفي العام والخاص. وهذا الاتجاه فرّغ الساحة الاعلامية من التجارب الاسلامية التي كانت موجودة على نحو مميز في بدايات الحركة الاسلامية في أوائل هذا القرن.

٢ ـ عدم نضوج الرؤية الاسلامية الشاملة لمفهوم الصحافة الاسلامية بسبب قلة الخبرة العملية وغياب التأصيل العلمي مما أدى إلى حصر هذا المفهوم فيما يمكن أن نسميه بـ «الصحافة الدينية المتخصصة» في غالب الأحوال، وهذا «التضييق المنهجي والعملي لمفهوم الصحافة الاسلامية أدى إلى فقدان أرضية واسعة من العمل الاعلامي في أنواع «الصحافات» الأخرى، وبخاصة العامة منها.

٣ ـ قلة الاستثمار الاقتصادي في الميدان الاعلامي الإسلامي بعامة والصحفي منه بخاصة، فكثير من الاسلاميين ـ بمختلف اتجاهاتهم وتمثيلاتهم ـ يفتقرون إلى النظرة التي تعد العمل الاعلامي عملاً اقتصادياً إلى جانب كونه عملاً رسالياً. وفي ضوء ارتفاع وتعقد «اقتصاديات» الصحافة الناجحة في عالم اليوم يتبين مدى «الهزال» الذي تعاني منه الصحافة الاسلامية.

٤ ـ ندرة الكفايات «الكوادر» الصحفية الاسلامية التي تتمتع بالتأهيل المطلوب لممارسة عمل صحفي مميز. بل أن معظم العاملين الآن في الصحافة الاسلامية يفتقرون إلى كثير من أساسيات العمل الصحفي سواء في تكوينهم المهني والفكري أو في خبرتهم وممارستهم العملية الميدانية. والصحفي المؤهل تأهيلاً متيناً هو حجر الزاوية في أي عمل صحفي ناجح، وبدونه لا يتحقق المراد حتى ولو تحددت الأهداف بوضوح وتوافرت الامكانات المادية والفنية.

٥ ـ ضعف الانتشار للصحافة الاسلامية، وهذا العامل له وجهان، أحدهما: أن الصحافة الاسلامية في مجملها لا تخاطب بمادتها الصحفية وانتاجها الفكري إلا فئات معينة في المجتمعات العربية والاسلامية وهي منحصرة غالباً في المتدينين والمنتمين إلى الاتجاهات والجماعات الاسلامية مما يفقدها سعة الانتشار. ومن جهة أخرى فإن محدودية إمكانات التوزيع في الصحف والمجلات الاسلامية تعوق انتشارها على نطاق واسع أيضاً.

وفي ضوء هذه الخلفية التاريخية السريعة، والاطلالة الخاطفة على واقع الصحافة الاسلامية يمكننا أن نقول إن الصحافة الاسلامية بمفهومها السائد أسهمت في التعبير إلى حد ما عن حركة الصحوة الاسلامية وقامت بدور لا ينكر في الدفاع عن الصحوة والتعريف بطروحاتها الفكرية والدعوية والاجتماعية والسياسية. كما أن خطابها ـ في بعضه ـ كان له أثر ـ نحسبه ولم نرصده علمياً وميدانياً ـ في بلورة بعض المفاهيم المتعلقة بترشيد الصحوة الاسلامية. ولكنني أزعم أن إسهام الصحافة الاسلامية في هذا الميدان كان محدوداً. كما أن فاعلية دورها الترشيدي لا تزال ضعيفة، وإن كانت مهمة الدفاع عن الصحوة قد أخذت في الصحافة الاسلامية حيزاً أكبر واهتماماً أوسع. وهو أمر طبيعي، إذ أن حركة الصحوة كانت ـ ولا تزال ـ تتعرض لحملات من الهجوم والتجني مما تحتاج معها إلى ردود دفاعية تعيد الأمور إلى نصابها وتذب عن الحقائق والوقائع.

المسؤولية المطلوبة

إن المسؤولية المناطة بالصحافة الاسلامية لترشيد الصحوة متشعبة الجوانب. ويمكننا تناول تلك المسؤولية ـ كما نرى ـ من خلال أدائها للمهمات التالية:

أولاً: المهمة البنائية، التي تتمثل في المساهمة في البناء الفكري السليم لعقول أبناء الصحوة الإسلامية، وذلك من خلال ما يلي:

- إشاعة العلم الشرعي والفقه الديني المتين.
- بلورة التصورات الفكرية الصحيحة في مختلف جوانب الحياة والتي تستند إلى الكتاب والسنة والتراث الموثوق للسلف الصالح.
- تأصيل المفاهيم والمصطلحات الدينية والتي يتداولها أبناء الصحوة الإسلامية وتحديد مراميها ومغازيها بدقة ووضوح حتى لا تزل الأقدام وتختلط الرؤى.
- تصحيح التصورات أو المفاهيم الخاطئة التي راجت بين الملتزمين واتسمت بالغلو أو المجافاة لوسطية المنهج الإسلامي وتعديل المواقف والسلوكيات التي أثمرتها تلك التصورات والمفاهيم.

ثانياً: المهمة التوعوية وهي التي تهدف إلى التثقيف العام والتوعية بقضايا الأمة ومشكلات الواقع وأحوال المسلمين في كل مكان. ويمكن الاسترشاد في أداء هذه المهمة بما يلي:

- التعرف على الواقع الاسلامي والدولي المعاصر كما هو ونقله إلى القارئ دون مبالغة أو تضخيم ودون تعتيم أو محاولة للتزييف.
- التثبت في نقل الأخبار وتمحيص مصادر المعلومات حتى لا تؤدي المعلومات المغلوطة إلى تبني مواقف خاطئة وإصدار أحكام لا تستند إلى الحقائق والوقائع الصحيحة.
- اتباع منهج التوازن والتكامل في الاهتمام بالقضايا والمشكلات وفي عرضها ومعالجتها.

ثالثاً: المهمة الحوارية التي تنبع من توفير قنوات حقيقية وحرة لتبادل الآراء وتداول الأفكار بعيداً عن التحجر الفكري والانغلاق والخوف

الوهمي من النتائج السلبية للحوار الفكري. لقد أصبح الانفتاح وفتح قنوات الحوار بين أبناء المجتمعات الاسلامية ـ على المستويات الفردية والاجتماعية ـ ضرورة لازمة حتى نقى مجتمعاتنا من الكثير من السلبيات الخطيرة للخلافات والتشرذم والصراعات. وكل ذلك ثمرة طبيعية لغياب الحوار الحر البصير واغلاق أبواب الاجتهاد والحجر على الأفكار.

ولتحقيق رسالة الصحافة الاسلامية وتمكيناً لها من أداء مسؤوليتها المناطة بها لا بد أن تتخلص هذه الصحافة من العيوب التالية في خطابها الموجه لابناء الصحوة:

١ ـ غلبة الطابع «الأيديولوجي» السياسي على كثير من الصحف والمجلات الاسلامية مما يعمق الاتجاه نحو التلوين القسري للاخبار والقضايا بلا مسوغ، ويكرس الاستقطابات السياسية والحزبية. وهذا يفقد الصحافة الاسلامية كثيراً من مصداقيتها لدى القارئين العام والخاص.

٢ ـ غياب المعلومات أو ضحالتها في الخطاب الصحفي الاسلامي والميل إلى الانشائية والحواشي غير المرغوب فيها، مما يضعف تأثير الصحافة الاسلامية في جمهورها الخاص والعام. والصحافة العصرية المتطورة تعتمد اليوم على المعلومات المباشرة التي تستقيها مصادر هذه الصحافة ومراسلوها ومندوبوها، وعلى المعلومات الغزيرة التي توفرها مراكز المعلومات وقنوات الاتصال والخدمات الصحفية في أنحاء العالم.

٣ ـ الأسلوب «التهييجي» العاطفي الذي تتسم به كثير من الكتابات الصحفية الاسلامية، بل حتى المعالجات الأخبارية والتقريرية التي يفترض فيها الموضوعية والتوازن والواقعية.

٤ ـ ضعف الصنعة المهنية في الخطاب الصحفي الاسلامي، إذ نجد كثيراً

من الكتابات الصحفية والموضوعات الاسلامية ـ برغم جودة أفكارها ـ لا تستفيد من «تقنيات» الكتابة الصحفية ولا تستفيد من إمكانات الفنون الاخراجية التي تستقطب القراء وتشد انتباههم من جهة، وتيسر لهم الافادة من المادة الصحفية وتغريهم بمتابعتها من جهة أخرى.

إن المأمول من الصحافة الإسلامية المعاصرة كبير وواسع. مأمول منها أن تواصل مشوارها التاريخي في التعبير عن حركة الصحوة الاسلامية والدفاع عن مكتسباتها والتبشير بمشروعها الحضاري لانقاذ الأمة مما هي فيه من بلاء. ومأمول منها أن تسهم في التكوين الفكري والسلوكي لقاعدة التغيير الإسلامي وهم شباب الأمة المتدينون والملتزمون وترشيد مسيرتهم كي يتجنبوا المزالق الفكرية والاندفاعات العاطفية. ومأمول منها أيضاً أن تقوم بدور فاعل في التأثير الإيجابي في الرأي العام محلياً وإقليمياً ودولياً حتى لا تكون صحافة منعزلة ومتقوقعة على نفسها.

إن المهمات النبيلة المطلوبة من الصحافة الإسلامية في سعيها الدؤوب نحو ترشيد مسيرة الصحوة الاسلامية لا يمكن أن تؤدى على الوجه الأفضل إلا إذا توافر لهذه الصحافة من الطاقات والإمكانات ما يساعدها على أداء الواجب الملقى على كاهلها. ولكن الطاقات والإمكانات وحدها لا تكفي بل لا بد من توافر شروط أخرى على قدر كبير من الأهمية يأتي على رأسها وجود مناخ فكري وسياسي واجتماعي صحي يتسم بقدر كبير من الحرية المسؤولة المهتدية بروح الشريعة والمنطلقة من مقاصدها الكلية وبغير ذلك لا يمكن أن نطلب من الصحافة الإسلامية القيام بمسؤوليتها كما ينبغي.

كما أن من بين هذه الشروط الضرورية شرطان مهمان؛ أولهما: توثيق روابط التعاون بين العلماء والدعاة والمرشدين الذين يتمتعون

بالقبول الحسن والعلم المتين والفهم الواقعي وبين مؤسسات الصحافة الإسلامية والعاملين فيها، إذ بدون هذا التعاون تفقد الصحافة مصداقيتها فلا تستطيع إقناع قرائها بترشيد مفاهيم الصحوة وسلوكياتها. أما الشرط الآخر فهو أن يتكامل مع دور الصحافة دور المؤسسات التربوية والاجتماعية والاعلامية الآخرى فالغاية المنشودة، وهي ترشيد الصحوة، غاية عظيمة ولا بد من تضافر جهود جميع هذه المؤسسات للوصول إليها. وينبغي أن لا تُغْفِل أمراً آخر لا غنى عنه وهو إزالة العقبات والمخالفات التي تؤثر في سلامة الالتزام العام للمجتمع. إن هذا المطلب يُعد وجهاً آخر من وجوه تكامل دور الصحافة الاسلامية مع دور المؤسسات الأخرى فما تبنيه الصحافة الاسلامية ـ وهي تؤدي دورها الترشيدي ـ ينبغي أن لا تهدمه مؤسسات أو جهات أخرى، كما أن ما تحاول الصحافة الاسلامية أن تزيله أو تنحيه من طريق المجتمع لا يصح أن يلقى تشجيعاً ودعماً من جهات أو وسائل أخرى.

إن الصحافة الإسلامية لا تستطيع أن تؤدي رسالتها وحدها فهي جزء من كل ولا بد أن تتكامل مع غيرها حتى ينجح التوجه العام نحو ترشيد الصحوة وضبط مسارها بما يحقق الأمل المنشود في صياغة مشروعنا الحضاري.